خطبة صلاة الجمعة 23/3/2012 للشيخ الطبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، المالكي، دمشق

www.dr-shaal.com

سلسلة قرأت في كتاب

(الإيمان والأمانة والأمن)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنَّ سيّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خيرُ نبي اجتباه، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدِّين كلِّه ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللَّهم صلِّ على سيّدنا محمَّد وعلى أله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد:

عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى وأحثكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير:

يقول الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النُّور:55].

وقال الله تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش:1-4].

وقال الله تعالى على لسان سيّدنا إبراهيم عليه السَّلام: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:81،82].

وقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلم: ((أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ وَلاَ تَخُنْ مَنْ خَانَكَ)) [رواه أبو داود والتِّرمذي].

وقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلم: ((إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ عَبْدَاً نَزَعَ مِنْهُ الْحَيَاءَ، فَإِذَا نَزَعَ مِنْهُ الْحَيَاءَ لَمْ تَلْقَهُ إِلَّا مَقِيتَاً مُمَقَّتَاً، فَإِذَا لَمْ تَلْقَهُ إِلَّا مَقِيتَاً مُمَقَّتَاً نُزِعَتْ مِنْهُ الْأَمَانَةَ، فَإِذَا نُزِعَتْ مِنْهُ الْأَمَانَةَ لَمْ تَلْقَهُ إِلَّا خَائِنَاً مُخَوَّنَاً، فَإِذَا لَمْ تَلْقَهُ إِلَّا خَائِنَاً مُخَوَّنَاً نُزِعَتْ مِنْهُ الرَّحْمَةَ، فَإِذَا نُزِعَتْ مِنْهُ الرَّحْمَةَ لَمْ تَلْقَهُ إِلَّا رَجِيْمَاً مُلَعَّنَاً، فَإِذَا لَمْ تَلْقَهُ إِلَّا رَجِيْمَاً مُلَعَّنَاً نُزِعَتْ مِنْهُ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ)) [رواه ابن ماجه].

أيُّها الإخوة:

هذه هي الخطبة التَّاسعة والعشرون في سلسلة: "قرأت في كتاب"، أختار لكم فيها فوائد منثورة، في كتب قرأتها أو بعضها؛ ليفيد المرء علماً وعملاً.

عنوان خطبة اليوم:

(الإيمان والأمانة والأمن)

قرأت في كتاب عنوانه "نظراتٌ في كتاب الله تعالى" للأستاذ الشَّيخ هِشام عبد الرَّزاق الحمصي -طبعة دار الكلِم الطَّيب بدمشق-، مبحثاً نافعاً في الإيمان والأمانة والأمن، أحببت أن أطلعكم على شيء ممَّا جاء فيه، قال المؤلِّف:

(الإيمان والأمانة والأمن كلماتٌ ثلاث ترجع في اشتقاقها اللُّغوي إلى أصل واحد، وارتباطها اللُّغوي جعل بينها ارتباطاً واقعياً في المادة والمعنى).

يعني أنَّ الإيمان بالله تعالى يقضي أنْ يكون المرء متحلِّياً بالأمانة في سلوكه وأخلاقه، وكلاهما الإيمان والأمانة يورثان الأمن الحقيقي: أمنَ الأفراد وأمنَ المجتمعات والأمنَ النَّفسي والصِّحي والفكري والسِّياسي والجنائي.

فالمؤمن الذي يؤدي الحقوق والأمانات إلى أهلها في أزمانها وأماكنها، يعيش أمناً حقيقياً، وغيرُ المؤمن أو المؤمنُ الذي يعتدي على الحقوق ويخون الأمانات يعيش خوفاً حقيقياً، يخاف وقوعه بيد العدالة حيناً، ويخاف وقوعه بيد من اعتدى عليهم حيناً آخر، ويخاف وقوعه بيد الله حيناً ثالثاً.

يقول المؤلّف: (قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النِّساء:58].

وردت كلمة ﴿الْأَمَانَاتِ﴾ في الآية بالجمع لتشمل كلَّ أمانة مادية ومعنوية، فالعارية أمانة والأسرة أمانة والأولاد أمانة والحواس أمانة والوظيفة أمانة والحُكْم أمانة والقضاء أمانة والكيل والميزان أمانة والبيع والشِّراء أمانة وكلُّ مسؤولية أو تصرف في قولٍ أو عملٍ أمانةٌ يجب أداؤها ومراعاتُها في ساحة شرع الله ورضاه، فإذا وصل كلُّ حقٍ إلى صاحبه كاملاً، شعر بالطُّمأنينة والقناعة والرِّضا، وعاش الجميع في مجتمع مؤمنٍ أمينٍ آمنٍ...

أمَّا ضياعُ الأمنِ وفقدُه فهو نتيجةٌ لضَيَاع الحقوقِ والأمانات وفقدها.

ورحم الله شاعر الباكستان الفيلسوف محمد إقبال القائل:

إذا الإيمان ضاع فلا أمانٌ ولا دُنيا لِمن لَم يُحْيي دِينا

ومن رَضي الحياة بغير دِينٍ فقد جَعَل الفناء لها قرينا)

أيُّها الإخوة:

ذكر الإمام الواحدي في أسباب النُّزول:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [النِّساء:58] نزلت في عثمان بن طلحة -رضي الله عنه- من بني عبد الدَّار كان سادن الكعبة، فلمَّا دخل النَّبيُّ -صلَّى الله عليه وسلَّم- مكَّة يوم الفتح أغلق عثمان -رضي الله عنه- باب البيت وصعد السَّطح، فطلب رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- المفتاح فقيل: إنَّه مع عثمان فطُلب منه فأبى وقال: لو علمت أنَّه رسول الله لم أمنعه المفتاح، فلوى عليّ بن أبي طالب -رضي الله عنه- يده وأخذ منه المفتاح وفتح الباب فدخل رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- البيت وصلَّى فيه ركعتين فلمَّا خرج سأله العبَّاس -رضي الله عنه- أن يعطيه المفتاح ليجمع له بين السِّقاية والسّدانة فأنزل الله تعالى هذه الآية، فأمر رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- علياً أن يرد المفتاح إلى عثمان -رضي الله عنه- ويعتذر إليه ففعل ذلك عليّ -رضي الله عنه- فقال له عثمان -رضي الله عنه-: يا عليّ أكرهت وآذيت ثمّ جئت ترفق!، فقال: لقد

أنزل الله تعالى في شأنك وقرأ عليه هذه الآية فقال عثمان: أشهد أنَّ محمَّداً رسول الله وأسلم.

وقال صلَّى الله عليه وسلَّم: ((**خذوها يا بني أبي طلحة بأمانة الله لا ينزعها منكم إلا ظالم**)).

إنَّ النَّاس إذا شعروا بأنَّ حقوقَهم محفوظة، وأماناتِهم مرعية، وحرماتِهم مصونة، فشا الأمن وبُسِطَت الطُّمأنينة. أمَّا إذا عدا القويُّ على الضَّعيف، وهضم الغني حق الفقير، وسَطَا القادر على العاجز، فأيَّةُ طمأنينة وأيَّةُ سكينة تُرْجَى لهم ومنهم.

أرسل سيَّدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى ولاته وعماله في الأمصار يقول:

(إيَّاكم والغضب والحُكْمَ بالهوى أو أخذَ الرِّشا، واجعلوا النَّاس في الحق سواء، القريب كالغريب والبعيد كالقريب، لا تضربوا النَّاس فتذلُّوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفِّروهم).

يقول المؤلِّف:

(الأسرة ينتشر فيها الأمن والسُّرور حين يعدل الوالد بين أولاده في العطية وحسن المعاملة وبين زوجاته كذلك، فيبادلُه الجميعُ الحبّ والولاء والمودَّة والإخلاص ويتمنّون له طول العمر.

والأخ الكبير الذي يرعى حقوق إخوته وأخواته بعد وفاة أبيهم فينصفهم ويعطي كلَّ ذي حقٍ حقه، فإنَّه واجدٌ منهم حبَّاً ووفاءً، يشاركهم السَّعادة في أسرة آمنة مطمئنة لا يكيدُ أحد لآخر ولا يتربَّص به الدَّوائر...

وزوجة الأب التي تخاف الله فترعى حقوق أولاد زوجها من غيرها كما ترعى حقوق أولادها منه ستجد منهم عطفاً وحناناً وإخلاصاً وولاءً ينعكس أمناً ورخاءً...

والمعمل ينتشر فيه الأمن حين يُخلص صاحبُه لعماله ويعطف عليهم ويرعاهم فيبادلونه بالحبِّ حبَّاً وبالرِّعاية اهتماماً.

والمجتمع يعيش في ساحة الأمن والأمان والسِّلم والسَّلام يقوم في حكمه وقضائه على العدل والشُّورى والمساواة فينهضُ المجتمع سليماً معافىً.

ولا يغْترَّن خائنٌ لأمانة بكسبٍ حرامٍ عاجلٍ وغُنْمٍ جاء بعد تصرف ظالم غافلٍ، فإنَّ حسابه وعقابه لابُدَّ قادمٌ نازلٌ، إنْ في العاجل أو في الآجل ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [الجاثية:15].

أيُّها الإخوة:

هذا شيء ممَّا قرأت عن الإيمان والأمانة والأمن ونحن اليوم مدعوون إلى ترسيخ الإيمان في قلوبنا وتعزيز الأمانة فيما بيننا حتَّى يبْسَط الأمن بيننا.

فالطَّالب أمانة في عنق المعلم، وربُّنا سائله هل حفظ الأمانة أم ضيَّع؟

والمريض أمانة في عنق الطَّبيب، وربُّنا سائله هل رعاه أم فرَّط؟

والجريح أمانة في عنق الممرض، وربُّنا سائله هل قدَّم وِسْعَه أم قصَّر؟

والمنشآت العامَّة أمانة بيد النَّاس، وربُّنا سائلنا أحافظنا عليها أم أساء لها أحد؟

والمشتري أمانة في عنق البائق، وربُّنا محاسبه أنصحه أم غشَّه؟

والمراجع أمانة في عنق الموظف، وربُّنا سائله أخدمَه وأعانه أم ابتزه؟

والموكِّل أمانة في عنق المحامي، وربُّنا سائله أدَّى واجبَه أم أهمل؟

والخبر أمانة في عنق النَّاقل والمحرر والمذيع، وربُّنا سائله: أصدقَ أم كذب؟

وهكذا يدخل الإيمان والأمانة في العبادات والمعاملات والعلاقات الأسرية وفي القضاء وفي الولايات العامَّة والخاصة.

ومهما فشا الإيمان وزادت الأمانة فشا الأمن والسِّلم في الأرض.

أخرج ابن مردويه عن عليٍّ –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم:

((يقول الله عزَّ وجلَّ: وارتفاعي فوق عرشي، ما من أهل قريةٍ ولا أهل بيتٍ ولا رجلٍ ببداديةٍ كانوا على ما كرهتُ من معصيتي ثمَّ تحولوا عنها إلى ما أحببتُ من طاعتي إلا تحولتُ لهم عمَّا يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي.

وما من أهل قريةٍ ولا أهل بيتٍ ولا رجلٍ بباديةٍ كانوا على ما أحببتُ من طاعتي ثمَّ تحولوا عنها إلى ما كرهتُ من معصيتي إلا تحولتُ لهم عمَّا يحبون من رحمتي إلى ما يكرهون من غضبي)).

والحمد لله ربَ العالمين